

بين المدرسة والمجتمع

وأقصر قامت .. ترى إلى أى غاية تصير أجيالنا المقبلة ،
وإلى أى نهاية تسير المدرسة بما فيها من ناشئة وبما تحويه
وتحتزنه من علم ومعرفة ؟ ! .

كنت أحضر بالأمس مناقشة عامة حول « المدرسة
والمجتمع » وكان أحد المتكلمين يرى أن المدرسة ليست
إلا صورة مصغرة للمجتمع الذى تنتسب إليه ، وأن من
أغراضها أن تعكس الحياة الاجتماعية بصورة مختزلة ، حتى
يشعروا بناؤها وهم فيها بأنهم فى مجتمعهم العادى ، ولا شعروا
عند خروجهم من المدرسة إلى المجتمع الواسع بفارق قد
لا يستطيعون معه تكيف حياتهم بحيث لا يعدون شواذاً
غير مرغوب فهم .. ولكن خصمه يرى غير هذا الرأى ،
إذ يعتقد أن هذه الفكرة ربما يسلم بصحتها إذا كان المجتمع
مثالياً تام النضج بالغ الكمال ، بحيث تقتنع بصلاحيته
استمراره لأننا لا نطمح فى مجتمع أرق منه وأكل .
أما وإن مجتمعنا لم يبلغ حتى فى أعظم الأمم مدنية
وحضارة مبلغ الكمال ، فإن أول واجبات المدرسة أن
تعمل على تخريج جيل أصلح للحياة وبذلك تكون العامل
الأول فى التطور المنشود للمجتمع ؛ هذا التطور الذى
لن يتم إلا إذا شعر المدرسون قبل إغريهم بأنهم يجب أن
يخرجوا من أبنائهم شباناً أقدر منهم على مواجهة الحياة
وأكثر منهم استعداداً للإفادة منها .

كانت خواطرى وأنا أستمع إلى الخطيبين تتجه فى
كل لحظة إلى أحوالنا بالكويت .. إلى مدرستنا القديمة
والحديثة .. إلى جوها المادى والمعنوى .. إلى رسالتها
وأهدافها .. إلى مافيا ومن فيها .. فما أنكرت من مدرستنا
القديمة أنها شذت عن قواعد الاجتماع ، فانها عكست فى
حجراتها كما عكست فى رؤوس أبنائها فكرة المجتمع السائدة .
وأفلحت إلى أقصى حد طلبه منها المجتمع فى نحو الأمية
بين الأطفال الذين أخذهم أبائهم طائعين أو كارهين إليها .
وكان الجو السائد فى المدرسة هو الجو السائد فى المجتمع ،
وكان أبرز ما فيها هو قيمة السن كمؤهل للعمل . وكانت هذه
النظرية مبنية على أساس اجتماعى محلى واضح الأسباب ؛

لقد عرفنا المدرسة صغاراً أنها ذلك البناء ذو الجدر
السميكة والنوافذ الحديدية والبوابة التى تفتح وتغلق
بميعاد ، وأنها ذلك المكان الذى يسيطر عليه نفر من
المعلمين فى أيديهم العصى وعلى ألسنتهم العلم ، وتعاون
الأداتان لكي تخلقا من التلميذ الجاهل « ... فى يقرأ
الكتاب ، ويخط الخطاب ، ويميز بين الطرح والضرب
فى الحساب ! ! » .

وما أذكر أننى رأيت مدرسة فى الكويت بجدرها
وقسبانها وبواباتها إلا أحسست أنها مكان يجدر بالطفل
أن يخشى ولوجه ، وإلا تواردت على ذكريات طفولتى
عند ما كنت أنتظر ساعة الخروج من المدرسة فى أول
دقيقة أدخلها ، فما كان فى محيطها ما يغرى طفلاً بأن يهجر
- جو الحرية الفسيح واللعب الحر والانطلاق على السجية ،
إلى أن يسجن نفسه بين جدران أربعة إلى مكتب قاس ،
صامتاً كالسهم ، خاضعاً لما يقوم به ، متقبلاً ما يحشر به
دماغه حتى يغدو الصورة المطلوبة من أستاذه الفريد ! ! .
وما تذكرت جو المدرسة القديمة إلا تذكرت قصة
خرافية عن أرض يعيش فيها خليط من الأقزام والعمالقة .
والأقزام فى المدرسة هم التلاميذ والعمالقة هم الأساتذة
بطبيعة الحال . وما أذكر قط أن قرماً طمح إلى أن ينمو
حتى يغدو عملاقاً فى يوم من الأيام ! ! . فإن أول البدائيات
أن يدخل التلميذ المدرسة وهو أقل علماً من المدرس ،
حتى يستطيع الاستفادة من حياته الدراسية على الأقل ..
ولحفظ النسبة بين العمالقة والأقزام لا بد أن يغادر التلميذ
المدرسة بعد مجهود دراسى مضمّن وهو أقل علماً من الأستاذ
كذلك .. ولم يكن هناك من يفكر فى التخصص ، إذ لم
تكن أبواب المعرفة أو أبواب المادة تسمح بهذه الحماقة ،
لهذا فإن التلميذ يخرج بما ناله من محصول على إلى الحياة
ليصبح عضواً عاملاً فى المجتمع ! .

ولئننى لأسائل نفسى اليوم : ترى لو ألجأتنا الحاجة
والضرورة إلى أن يشغل هؤلاء الأقزام مكان أولئك
الأساتذة ليخرجوا لنا أقراماً أعظم تواضعاً وأدق أجساماً

نظام المعاملة والافزام وإذا استطاعت أن تخرج شباباً
أحرار الفكر أقوياء الشخصية لا يتخرجون من النقد ولا
يخشون توجيهه .

أما إذا عجزنا عن تهيئة المدرسة اللازمة والمدرس
الكفء ، ولم نستطع تحقيق الانسجام السامى فى مجال
التعليم ، فإننا سنعيش فى مجتمع فيه ما لا يخصى من الافزام
ومن عمالة أشبه بالافزام . . .

عبد العزيز حسين

لندن —

أنواع الكرام

ورد فى مأثور القول :

« أليد العليا خير من اليد السفلى ، ومع هذا
كله لا يزال العطاء من شيم الأخلاق ، ولكن
من الناس من يعطون قليلا من الكثير الذى
عندهم — وهم يعطونه لأجل الشهرة ورغبته
الخفية فى الشهرة الباطلة تضعف الفائدة من
عطائهم .

ومنهم من يملكون قليلا ويعطونه بأسره .
ومنهم المؤمنون بالحياة وبسخاء الحياة هؤلاء
لا تفرغ صناديقهم ، وخزائهم تمتلئ أبداً .

ومن الناس من يعطون بفرح . وفرحهم
مكافأة لهم .

ومنهم من يعطون بألم وألمهم صقل لهم .
وهناك الذين يعطون ولا يعرفون معنى للألم
فى عطائهم ولا يتطلبون فرحا ولا يرغبون
فى إذاعة فضائلهم ، هؤلاء يعطون ما عندهم كما
يعطى الریحان عبيره العطر فى ذلك الوادى .

« مبراه »

إذ أنه ما دامت الثقافة المدرسية العميقة تكاد تكون
معدومة فإن الخبرة والممارسة هى المؤهل للمعرفة ، وكلما
مد الله فى عمر إنسان اضطر لأن يخبر الحياة فيزداد حكمة
وعقلا ومقدرة على الإدراك السليم ! . وقد يبعث الله
عقبياً لا ينتظر إلى أن يطعن فى السن لكى ينال الحكمة
ورجاجة العقل ، أو يخلق معتمداً لا تزيده الأيام إلا جهلاً ،
ولكن هذين من شواذ القاعدة العامة ، وحديثنا عن غالبية
المجتمع التى كثيراً ما ابتلعت فى جوفها العبقرى والمعتوه
على السواء ، وإن كان العبقرى ليس سهل الهضم
ولا مستساغ المذاق ! . .

والنظريات أو التقاليد الاجتماعية التى تنشأ وتتركز
ببطء ، تذوى وتنفى ببطء كذلك . وقد بدأت تذوى
نظرية ارتباط المعرفة بالسن فى مجتمعنا ، ولكنها لم
تختف بعد وقد لا ينتظر لها أن تختفى إلا بعد سنين كثيرة .
وعندما تنفى ستبقى معها نظرية وراثية الكفاءات ،
وسيعتدو الشخص بعمله وإنتاجه لا بأبيه أو سنه . .

إننا إذا كنا نطمح فى تغيير سريع مضمون ناجح فى
حياتنا الاجتماعية ، فإن علينا أن نبدأ بمدارسنا فنجعل منها
مثلاً للمجتمع الرافى الذى نسمو إليه : أساتذة متحابون
يدركون خطر الرسالة التى يضطلعون بها ، لهم حظ من
العلم ومن صفات العلماء ، يحدبون على الناشئة التى وكل
إليهم رعايتها ، ويدركون أن أول واجباتهم أن يهيئوا
المجال الذى تنمو فيه مدارك تلاميذهم ومواهبهم
وشخصياتهم . وأن يتعهدوا فيهم ملكة النقد حتى لا يغدو
صوراً ممسوخة أو متقنة منهم بل أفراداً قادرين ببصيرتهم
على أن يتميزوا صالحهم ويشقوا طريقهم ، ويختاروا
لأنفسهم الأسس التى يبنون عليها فلسفتهم ونظرتهم إلى
الحياة . .

إننا نطمح فى تطور اجتماعى يدفعنا خطوات سريعة
إلى الأمام ، وسيجى صغار اليوم ثم هذا التطور غداً ،
إذا استطاعت مدارسنا أن تكون فى ذاتها مجتمعاً لا يسوده